عراقيون

من زمن التوهج

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة

المدى

للإعلام والثقافة والفنون

www.almadasupplements.com

"20عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

رئيس مجلس الادارة

رئيس التحرير

فخري كريم

العدد (5667) السنة الحادية والعشرون

الخميس (9) أيار 2024

خالد القصّاب

استذكار خالد القصّاب:

المثقف المبدع، المتعدد المواهب يتعين تخليده، اليس كذلك؟

د. خالد السلطاني

عندما شرعت، مع طلابي بمدرسة العمارة البغدادية في مطلع الثمانينات، لاعداد ندوة عن " عمارة الخمسينات " في العراق، كان ضمن مقاصد تلك الندوة، الاشارة الى الصفحات المنسية من تاريخ العمارة العراقية الحديثة، والتذكير بمبدعيها الحقيقين، ومحاولة اعادة قراءة وتقييم منجزات ذلك التاريخ؛ التاريخ الذي لم يكن كثيرون، وقتذاك، مهتمين به، او يدركون حقيقة منجزه بشكل كامل ودقيق. ومن خلال اهتماماتي بالعمارة العراقية الحديثة، وشغفي المهني والاكاديمي تحديدا في انجاز عمارة الخمسينات، كانت اعمال المعمارية " الين جودت الايوبي " تستهويني، وتثير تصاميمها رغبة كبيرة لدي في التعرف على منطلقاتها المعمارية وفهم مرجعياتها التكوينية؛ اذ كانت اعمالها تنطوي على جرأة تصميمية واضحة، يعززها توق ظاهر في توظيف مفردات معمارية لم تكن يومذاك، شائعة في الخطاب المعماري العراقي فحسب، وانما كانت تلك المفردات، جديدة ومستجدة ايضاً في عموم الممارسة المعمارية العالمية.

وكان مبنى " مشغل الهلال الاحمر " في العلوية ببغداد (1949–1950)، يجسد بامانة تلك التطلعات التصميمية، التى تنشد المعمارية (الامريكية الاصل) ان ترسيها في الفعالية المعمارية المحلية. فالمبنى، الذى اعده شخصيا، من اجمل مباني عمارة الخمسينات، واحد الاعمال الرائدة في سجل العمارة العراقية الحديثة ومنطلقها الحصيف في مرحلتها الثانية؛ كانت عمارة ذلك المبنى تتسم على خصائص ومبادئ تصميمية حداثية، تستمدها من مسلك التيار الوظيفي، ذلك التيار الذي ما انفكت طروحاته، حينذاك، تثير جدلا واسعا في الاوساط المعمارية الاكاديمية والصحافة المتخصصة، اما على المستوى العملي الفعلي، فلم يحظ النهج الوظيفي على تعاطف كبير، وباتت امثلته المبنية منحصرة في مبان ذات مقاسات متواضعة وبمضامين بسيطة، رغم ان تلك الامثلة سيتم تقييّم ظهورها لاحقا (تماما مثل مبنى " المشغل ") كاحداث انعطافية وتحولات اساسية في تطور ذلك التيار، ومحاولات تكريس مبادئ مقارباته المهنية في الخطاب المعماري العالمي!.

كانت عمارة " مشغل الهلال الاحمر " تمثل لدي قيمة مزدوجة: مرة، لانها ترسي لغة العمارة الوظيفية في الممارسة المعمارية المحلية؛ والمرة الاخرى، كون عمارته تمثل استقراءا لامكانية اقتحام مجالات جغرافية جديدة و جوّب فضاءات ثقافية مغايرة، في " تمرين " جرئ، يتوخى نشر العمارة الوظيفية بعيدا عن " مكانها " الاصلي، و" فضاءاتها " المألوفة؛ بتعبير آخر، كانت عمارة المبنى اختبارا حقيقياً لمصداقية طروحات التيار الوظيفي، وامكانية عمل تلك الطروحات في بيئات آخرى. ومم ا عزز الرغبة لديّ في التعرف بعمق لاهمية دور " الين الايوبي " في الممارسة المعمارية المحلية، كونها قد صممت مبان اخرى في بغداد، كرستها كاحدى المعماريات المجدّات في مجمل " بوناراما " عمارة الخمسينات.

... لا اتذكر، من هو الذي اشار الى دارة " خالد القصاب " في حي المنصور ببغداد، ونحن: الطلبة وانا، في خضم عملنا لاختيار مواقع متابعة وتصوير نماذج عمارة الخمسينات لتلك الندوة المعمارية، التى انعقدت في مدرسة العمارة بجامعة بغداد، لافتا انظارنا بان مصممة تلك الدارة، هي " الين جودت الايوبي " ذاتها؛ هل هو " جعفر علاوي " ام " محمد مخزومي "، المهندسان اللذان ساهما ببحثين قيمّين في تلك الندوة؟؛ لا اتذكر الان، لكن الذي اذكره جيدا، باني سرعان ما اتصلت بخالد القصاب، ورجوته ان يقبل زيارتي لمعاينة داره والتعرف على عمارتها ميدانياً. رحب الرجل بمقترحي، واتفقنا ان ازوره في داره في احدى صباحات يوم جمعة.

لم يتسن لي معرفة سابقةً بخالد القصاب (1924–2004) شخصيا، اعرف بانه احد الرسامين الرواد، كما اعرف بانه طبيب بارع في مجال اختصاصه، وشاهدت له بعض اللوحات التى كان يشترك بها في معارض فنية. كنت اعاني كثيرا من عدم ادراك كثير من الناس لمجالات عمل المعمار، فقد كان الشائع بينهم، بان عمل المعمار يقتصر على " رسم واجهات " لمبانٍ، يشيدها ويشرف على بنائها المهندسون المدنيوّن. وكنت غالبا في نقاش دائم، وممل في الكثير منه، مع اولئك الذين قدر لي ان اقابلهم او ازورهم، لمعاينة دورهم او مبانيهم، التى الحظ فيها جهداً تصميماً اراه جديرا بالحفاظ او المسح الموقعي والحرص على تسجيل ذلك الجهد في سجل تقصياتي الشخصية عن نماذج معمارية تقع ضمن اهتماماتي المهنية والاكاديمية، وهي اهتمامات خاصة بمنجز العمارة العراقية الحديثة.

كنت اتذرع بالصبر، وانا اصغي الى " تصاريح " عديدين، وانصت الى بياناتهم القاطعة، التى لا تقبل المناقشة، فيما يخص محدودية، وقصور وحتى " تفاهة " عمل المعماريين، وكنت اترقب مثل ذلك من محدثي، الذي ساقابله في احدى صباحات من يوم جمعة!. وزرته في بيته. استقبلني الرجل بحرارة، وفهم مقصدي سريعا، واطلعني مباشرة على فضاءات الدار كلها، بعدها حدثني عن طريقة عمل المعمارية " الين "، وكيف انها كانت تريد ان تعرف تفاصيل عديدة عن اسلوب معيشة " زبونها " الذي سيسكن في " داره " هو؛ اذ كان همها، كما لاحظ خالد القصاب، ايجاد حلول معمارية كفوءة لاسلوب معيشة " اهل البيت "، اكثر بكثير من الرغبة في " تصميم " بيت، على ساكنيه " ترويض " انفسهم للعيش فيه، كما يفعل عدد غير قليل من المعماريين!

ادهشتني تلك الملاحظة الذكية من محدثي؛ وبمرور وقت المقابلة اقتنعت باني امام شخص مثقف ثقافة رفيعة، شخص بمواهب عديدة، يعرف كيف يصغي الى الاخرين، ويمتلك القدرة على طرح افكاره بوضوح واقناع شديدين. ومنذ ذلك اللقاء الاول، بتنا اصدقاء. كنت ازوره في دارته بالمنصور، نتناقش في امور ثقافية، تأخذ العمارة حيزا واسعا من تلك الاحاديث، العمارة التى كان شغوفاً بها وبانجازاتها، يبدي ملاحظاته الرصينة على ما كنت انشره حول قضايا معمارية في الصحف المحلية. كنت اراه احد المبدعين المتسمين بعمق الثقافة والمولعين بقضاياها المختلفة، وكنت دائما اشعر بان شخصيته الودودة التى توحي بالالفة والصداقة، ومرتبته السامية في مجال اختصاصه المهني،

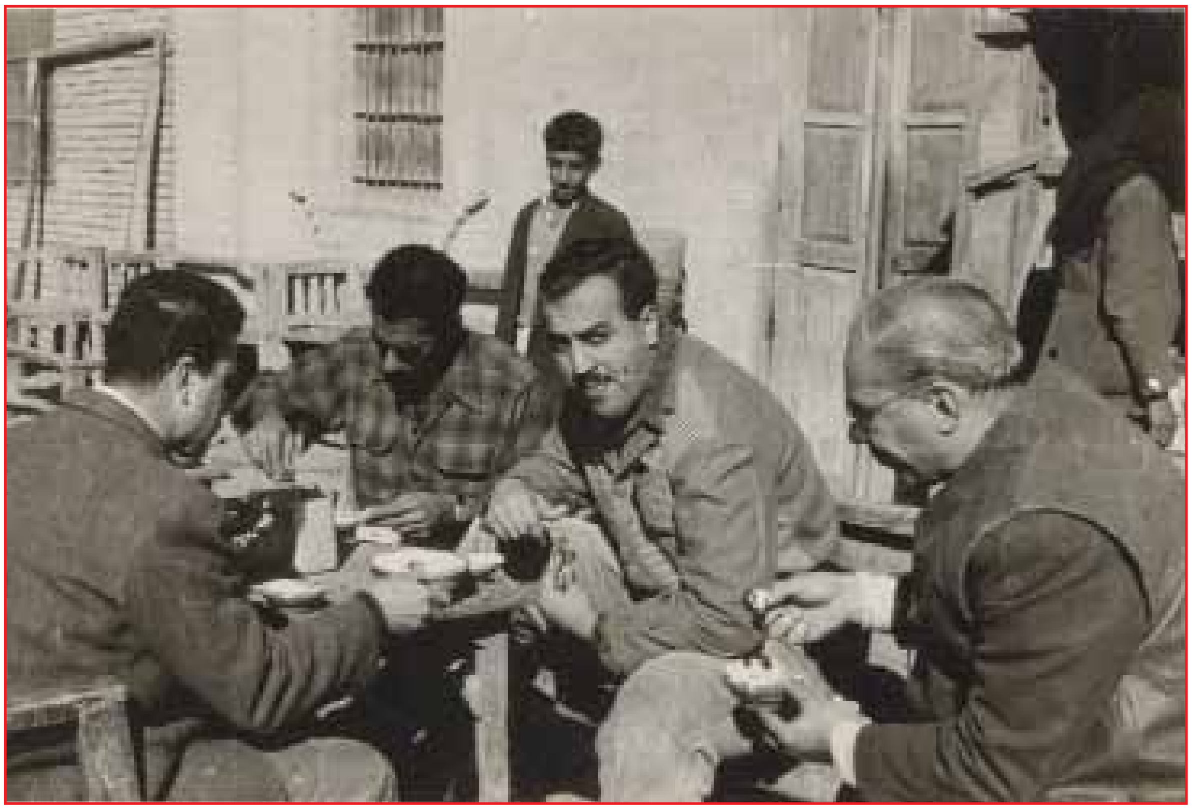

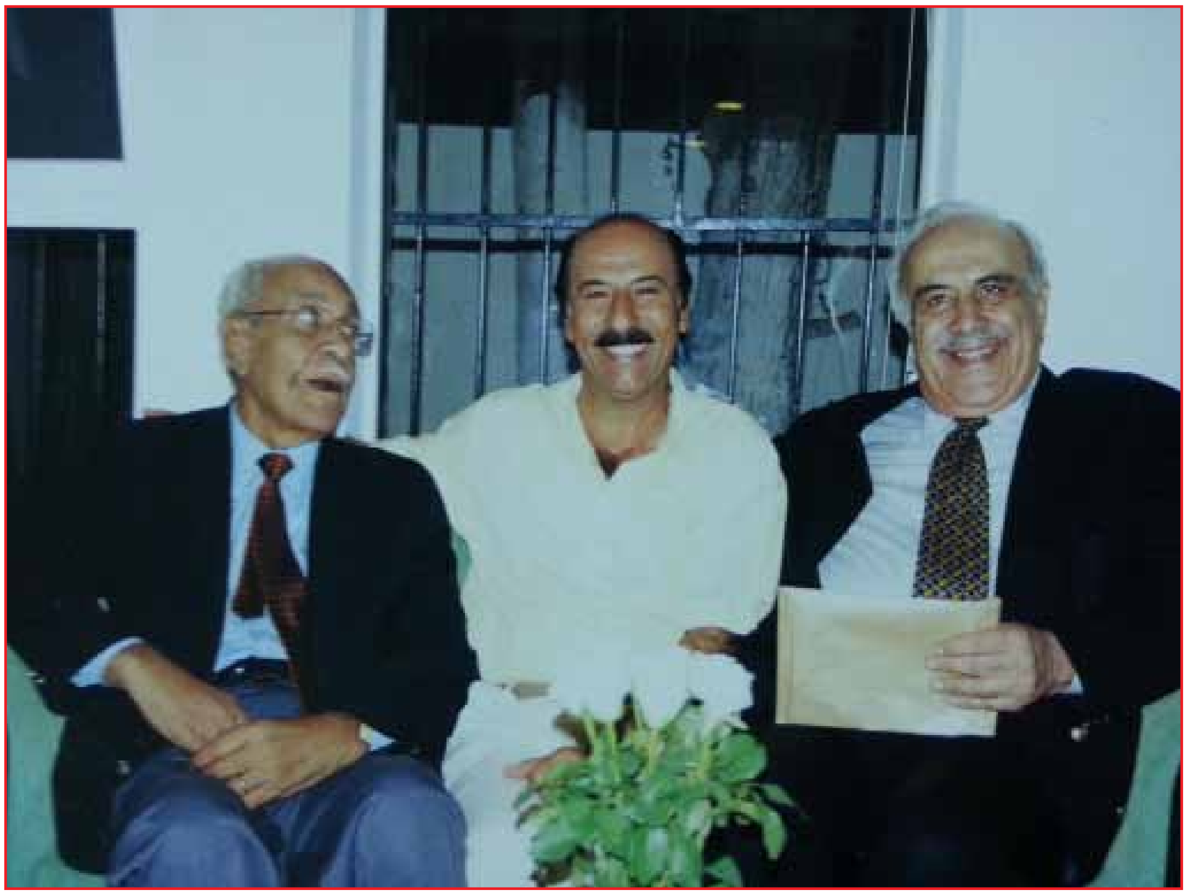

كطبيب بارع، واكاديمي مرموق؛ فضلا على منزلته الفنيه الرفيعة التى لا يمكن ان ينكرها احد، ودوره المشرف في ارساء القيم الجديدة في الخطاب الفني العراقي؛ تجعل منه احد الدعائم الحقيقية للثقافة العراقية ورمزها الحيّ!.

ورغم الاجحاف والظلم المشوب بالقسوة الذي وقع على خالد القصاب، اثر قرار ابعاده بصورة جائرة عن عمله الذي يحبه، كاستاذ جامعي في كلية الطب العراقية، جراء قوائم الفصل التعسفي التى اصدرها النظام الدكتاتوري التوتاليتاري البائد في نهاية السبعينات، كمسعى رخيص منه لتهميش الثقافة العراقية وايذاء رموزها، فقد ظل خالد القصاب وفيا لانتمائه الى تلك الثقافة، ومساهما نشطا في صوغ منطلقاتها النبيلة ونشر اهدافها الاصيلة، على عكس أولئك الذين تسلقوا سريعا سلم " المجد " الزائف، بالتملق للدكتاتورية وقبلوا ان يكونوا هم " وفنهم " دعاتها المسعورين. ولعل التذكير بدور " علاء بشير " المشين (كونه طبيب و" رسام " ايضا) وانضمامه الطوعي الى معسكر الدكتاتورية، والتبجح بكسب عطاياها المحرمة ونيل رعايتها، ودعايتها الرخيصة، يفضح مقدار الهوة العميقة التى عادة ما كانت تفصل بين رموز الفن الاصيل، والمدعين به!..

يحيل النقاد، غالبا، اسلوب خالد القصاب وطريقته في التعاطي اللوني، الى الرسام الانطباعي الفرنسي " سيزان "؛ وربما كان هذا الامر صحيحا، فالاثنان يوليا أهتماما زائدا الى نوعية اللون واستخدام الكثافة اللونية في اللوحة الفنية، اللون التعبيري، الذي يشكل " معمار " اللوحة وعنصرها السائد. في لوحات خالد القصاب، كما عند بول سيزان، يتبدى اللون وكأنه اللاعب الرئيس في حيز اللوحة، لكن القصاب، يشرك ويضيف ضوء الشمس " البغدادية " المتوهج، والمستعر، والحار جدا، الى مفردات اللوحة التى تتشكل من اللون " الوحشي " (اذا جاز لنا التعبير)، والضياء المنبعث عن نور الشمس، الذي يغمر اللوحة من كل الجوانب. في مرات عديدة يستعين خالد القصاب بالظلال القصيرة الحادة " الكونتراستية " التى تهيمن على " مفردات " اللوحة الفنية، ليذكرنا بحضور الجوّ المشمس المتوقد والحار.

في لوحته، التى اعتز باقتنائها، والمرافقة لي اينما حللت، والتي يعود تاريخها الى 1994، والمسماة، تتجلى اهتماماته اللونية بشكل مؤثر، ففيها تبدو هيمنة لغة المشهد الطبيعي، التى يلعب الضوء واللون الدور الاساسي في تكوينها وانشائها؛ ثمة اشجار في المستوى الاول الامامي، تليها كثافة لونية كناية عن " سواد " اشجارنخيل موقعة في خلفية اللوحة، ونلحظ شريطا ابيضا مغبرا لسطح النهر، الذي تقطعه صفوف شاقولية من اشجار مستوى اللوحة الامامي. وعلى اليمين، ثمة شاهد معماري: منشأ قديم لمضخة ماء؛ يتحدد " سيلويته " Silhouette وشكله الخارجي بالظلال القوية للاشجار المحيطة به. فقط، حوض الماء الفارغ، بجانب السلم المكشوف الذي يوصل الى منسوب ما، في المنشأ المجاور، وحده هذا الحوض، يمتلك خطوطا هندسية منتظمة؛ عدا ذلك فان اللوحة تمور في خطوط مائلة لاشكال انسيابية، تشي الى قدرة الطبيعة الخارقة في ابداع صيرورة من التنوع التشكيلي والاختلاف؛ ليسهم كل ذلك في خلق فعل درامي داخل اللوحة، فعل مشوب برغبة جامحة لدى الفنان في جعل جميع عناصر لوحته مشبعه بمناخات الزخرفة اللونية، جاعلا اياها (اي اللوحة) تعبق بثراء التزيين، المماثل مع غنى الاشياء المحيطة والمتساوق معها.

لا ادري لماذا، كلما اقف امام لوحات خالد القصاب استظهر اعمال الفنان الارمني المعروف " مارتيروس ساريان " (1880–1972)، ولوحاته المشهورة، وفي الاخص لوحتة " النخلة " (1911) او " ليلة مصرية " (1912)؛ " نعم، ساريان، اراه اقرب الى خالد، منه الى " سيزان " كما يحاول النقاد اقناعنا. فساريان، كما هو خالد القصاب، معروف بضربات فرشاته السريعة التى تجعل من هيئات العناصرالمرسومة، هيئات حافلة تشكيلاتها بتلقائية مقصودة، تشي بحضور التمثيل، كمقترب اساسي في عملية خلق اللوحة الفنية.

هل عرف خالد القصاب ساريان؟، – ربما؛ وهل لذلك من اهمية؟؛ فالفنان المبدع الحقيقي يتكأ، في اعتقادي، على ذخيرة ابستيمولوجية، ذخيرة

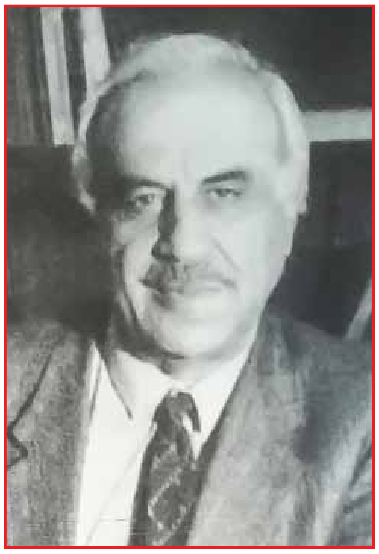

شارك في تكوينها مبدعون عديدون: قدماء ومعاصرون، محليون، وعالميون؛ وكلما كانت تلك الذخيرة متنوعة وعريضة، كلما كان منجز الفنان اكثر القاً وابداعا!.

لا تستهوي خالد القصاب اللوحات الضخمة، ذات الابعاد الكبيرة. فالفنان مكين في التعبير عن تماهيه مع موضوعة لوحته ضمن اطار محدد، عُرف به الرسام. ان اكثرية لوحاته لا تتجاوز 70×100 سم؛ ان لوحة " البستان " هي بابعاد 50 × 65 سم. ويبدو لي ان الفنان في اصطفائه لمثل هذه الابعاد المتواضعة يتوق لان يجعل من نتاج فنه، نتاجا ملائما لمشروع اضفاء معنى جديد للفن العراقي، ودور هذا الفن في تأثيث الحيز المعماري لفضاءات البيوت السكنية، معنى منطوي على حساسية مغايرة، تنشد نوعا من القطيعة لما هو مألوف ومتعارف عليه، تجد مرجعيتها في اطار الحداثة، ذلك المفهوم الذي يجتهد خالد القصاب لتكون تأثيراته شائعة ومتداولة في اوساط ثقافية واسعة!

تمثل مرحلة عقد الستينات اهمية خاصة في مسيرة انتاج خالد القصاب الفنية، ففي هذا العقد تحديدا، تبلورت مزايا النضوج المهني الفني لديه، بحيث اهلته لينشأ لنفسه مقاربة شخصية، وجدت اسلوبها في تميّز فنه عن الاخرين؛ مقاربة لا تنشد الى تغييرات اسلوبية عديدة، وانما تحرص على تعميق مستوى الحاصل الفني، والاشتغال عليه يوميا، سعيا لبلوغ مهارة عالية واحترافية متقنة. ذلك ان ممارسة التجريب والانهماك في تمرينات البدايات الاولى التى شكلت الهاجس الاساس على مدى العقدين السابقين، ينبغي الان، وضعهما جانبا، او بالاحرى تخطيهما وتجاوزهما، للتركيز على مهمام تكريس الاسلوب الذاتي الخاص، والتوق لجعله صنيعا فنيا مميّزا، يشير الى الحضور اللافت لمبدعه في المشهد الفني العراقي الحديث!.

لقد شكلت بدايات الفنان التى انطوت على مشاركة مستمرة ودائمة مع آخرين في " تجوالات " الرسم بمناطق ضواحي بغداد وخارجها، شكلت ارهاصا بما سيلي، وذلك في ايلاء اهمية كبرى لحضور المشهد الطبيعي في العمل الفني، ذلك المشهد الذي ما انفك غارقا في ضياء الانوار القوية والعاج بنتاج الطبيعة المتنوع!. واعطت تلك الرحلات الاسبوعية التى كان يقوم بها خالد القصاب في الاربعينات وبداية الخمسينات، مع اصدقائه الفنانيين كفائق حسن، واسماعيل الشيخلي، وزيد محمد صالح، وفاروق عبد العزيز، وعيسى حنا وغيرهم، اعطت ثمارها الفنية، وآهلته سريعا ليكون واحدا من فناني العراق الرواد المعروفين.

ولئن كان العقد الستيني بالنسبة الى خالد القصاب يمثل فضاءا زمنيا، استطاع به ان يؤسس لنفسه اسلوبا فنيا مميزا، عماده موضوعة المشهد المكاني، فان ذلك الاسلوب، وتلك الموضوعة حددتا، في الوقت عينه، اطارا عاما لثيمة فنية محببة، ما برح الفنان مسكونا بها، محاولا مرارا ان يكتشف تنويعاتها المختلفة، وان يعيد قراءتها، في عملية " غوص " داخلي يتوخى به استشراف نماذج مركزة لتلك التنويعات. في تعبير آخر، ظل خالد القصاب مكتفيا بما حققه من اكتشاف وقانعا به، الاكتشاف الذي يتعين الاشتغال عليه بدأب وجدّ شديدين؛ من دون ابداء اية رغبة لتغيير اساليب اكتشافاته الفنية او اظهار نزعة ما لتجريب اساليب مغايرة.

وفي هذا الصدد كتب الناقد " جبرا ابراهيم جبرا " عن تجربة خالد القصاب في هذا المجال ".. لقد غيّر رسامو الطبيعة البارزون، كفائق حسن وجواد سليم وحافظ الدروبي واسماعيل الشيخلي، اساليبهم كما غيروا مقتراباتهم من التجربة البصرية. وكان في هذا التغيير المطرد تنويع للرؤية، وتطوير للاسلوب. الامر الذي كان متوقعا من اصحاب الحرف التصويرية في عالم كثير التقلّب في الذوق والتطلعات. غير ان الدكتور خالد القصاب بقى مسترسلا في استقصاءاته للطبيعة استرسال العالم في بحثه المتواصل، يضيف كل مرة عمقاً جديداً الى نظرته، وعشقا جديدا الى مجاميع عشقه، ولكن ضمن شروطه هو، تلك الشروط التى أضفت على كل لوحة من لوحاته سماته التى لن تخطئها العين، سواء من حيث اللون او الشكل... "

ختاما، لقد اثرنا ان نصطفي عنوانا طويلا لمقالنا هذا، نستحضر به خصوصية الاجواء الثقافية لعقد الستينات، وشغف مبدعي ذلك العقد وكتّابه في تعمّد تفضيل وانتقاء عناوين مديدة لمواضيعهم، بالضد من اختزالية الخمسينات وسعيها الى الايجاز؛ ذلك العقد الذي نضج به خالد القصاب فنياً، ليضحى بعد ذلك، واحدا من اهم الفنانين المميزّين في المشهد الفني العراقي، وظل كذلك، لحين فاجعة وفاته في 22 تموز (يوليو) 2004. وليس ثمة شك، من ان ارث خالد القصاب الفني والثقافي والعلمي، مثل اضافة نوعية في منجز الثقافية العراقية وسجلها الحضاري الحديث، ويتعين لذلك جمعه والحفاظ عليه، كاحدى الصفحات الناصعة لذلك السجل!

عراقيون
من زمن التوهج
"20عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

نجدة فتحي صفوت وذكريات عن خالد القصاب

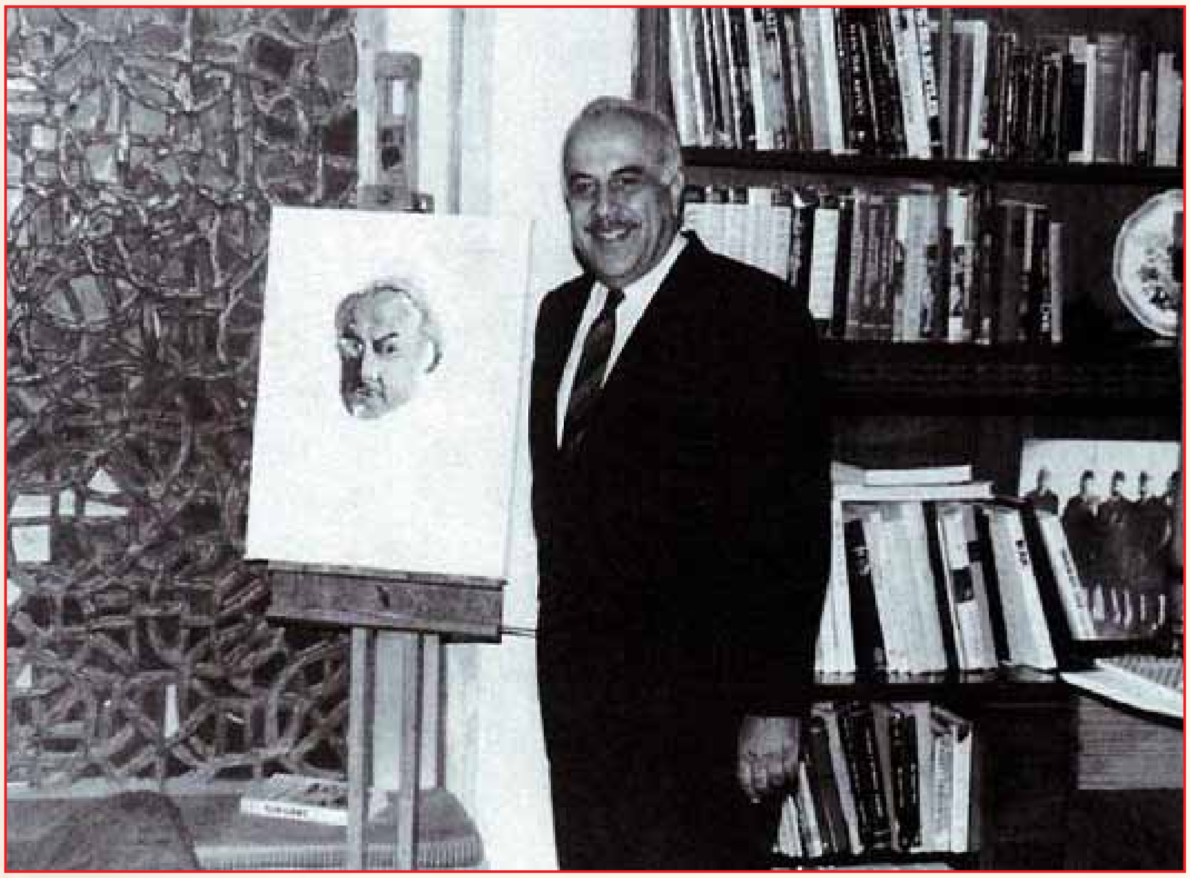

كانت مدرسة (دار السلام) في محلة (خضر الياس) بجانب الكرخ من بغداد - حيث كنا نسكن - المدرسة الابتدائية التي تعرفت فيها على صديق العمر خالد القصاب- رحمه الله - فقد اجتمعنا في الصف الاول الابتدائي من تلك المدرسة وكلانا في السادسة من العمر او نحوها. وكان ذلك في سنة 1929 اي قبل 77 سنة من كتابة هذه السطور. وخالد القصاب هو زميل الدراسة الوحيد الذي اتذكره من زملاء الصف الاول الابتدائي، الى جانب زميلنا الاخر المرحوم على جميل الراوي - الذي اصبح ضابطا في الجيش العراقي، وتوفي في سن مبكرة نسبيا.

ولد خالد القصاب في بغداد سنة 1924، وهو ابن المرحوم عبدالعزيز القصاب (1882 – 1965) الذي كان من رجال السياسة والادارة البارزين في العراق. اكمل دراسته في المدرسة "الملكية الشاهانية" في استانبول، وكان قائم مقام في اقضية عراقية عديدة، ثم متصرفا (او محافظا بمصطلحات الي وم) في عدة الوية (او "محافظات")، واصبح وزيرا للداخلية اكثر من مرة ايضا، ورئاسة مجلس النواب وتولى في اوقات مختلفة وزارة الداخلية، ووزارات اخرى كالري والزراعة والعدلية، وتوفي في بغداد 1965، وله مذكرات بعنوان: "ذكرياتي".

وقد خلف عبد العزيز القصاب ثلاثة ابناء اكبرهم الدكتور عبد المجيد القصاب الذي درس الطب في فرنسا، ومارس الى جانب مهنته نشاطا سياسيا ايضا وكان شخصية وطنية، وتولى وزارة المعارف ووزارة الصحة – ويليه (خالد) ثم (سعدون) -1929 1999، وكان مهندسا مدنيا تلقى تعليمه في جامعة بغداد، ثم في "جامعة ميشيغان" بالولايات المتحدة، وشغل مناصب فنية وادارية عديدة، وكان مديرا عاما في وزارة الصناعة وانتدب للعمل في جامعة الدول العربية، وتوفى في لندن. وله ايضا ابنتان هما الدكتورة سعاد، رحمها الله، والسيدة بلقيس، زوجة الدبلوماسي العراقي البارز عبد الجليل الراوي، رحمه الله.

وقد فرقتنا الايام في وقت مبكر من الدراسة الابتدائية، اذ كتب علي ان انتقل من مدرسة ابتدائية الى اخرى بحكم انتقالنا من دار الى اخرى قبل ان نستقر في سنة 1937 في الدار التي ابتناها والدي على طريق الاعظمية في الشارع الذي سمته امانة العاصمة "شارع الخنساء"، واصر اهل بغداد على تسميته "شارع طه" بسبب وجود دار "طه الهاشمي" (رئيس اركان الجيش ورئيس الوزراء السابق) في اوله. كما انتقلت اسرة خالد الى الدار الجديد التي ابتنتها على شاطئ دجلة في منطقة (الصالحية) بجانب الكرخ. ولا اتذكر اين اكمل خالد دراسته الابتدائية بعد ذلك. اما الدراسة المتوسطة فقد اكملها في "مدرسة الكرخ المتوسطة" كما يظهر في مذكراته، في حين انني اكملتها في "المتوسطة الغربية".

وفي "متوسطة الكرخ" دخل حياة خالد مدرس الرسم رشاد حاتم الذي ترك في نفسه اعجابا كبيرا واكتشف، في تلك السن المبكرة، موهبته في الرسم وشجعه على تنميتها واجتمعنا مع خالد مرة اخرى في "الثانوية المركزية" التي كانت المدرسة الثانوية والوحيدة في بغداد. وانتمى خالد لى (الفرع العلمي) واتجه بعد اكمال الدراسة الثانوية الى دراسة الطب كما فعل معظم اصدقائنا المشتركين، بينما قررت ان ادرس الحقوق، ولكن صلاتنا بقيت مستمرة وازدادت مع الايام وثوقا. وكنت في كثير من الاحيان اخرج من (كلية الحقوق) التي كانت في منطقة "العيواضية" من بغداد، ولا تبعد كثيرا عن كلية الطب، واذهب ماشيا للقاء اصدقائي فيها كلما وجدت فراغا او كانت ساعة محاضرة لا استسيغها او بامكاني قراءتها في الكتاب بعد ذلك. وكان في كلية الطب مطعم يجتمع فيه الطلاب في اوقات فراغهم، وهو اشبه بمقهى منه الى معظم. وكنا نقضي فيه ساعات ممتعة في مزاح لطيف ومحاورات مختلفة مع اصدقاء العمر خالد (القصاب) وفيصل صبيح نشأت ومصطفى ابراهيم ادهم ونوري مصطفى بهجبت وسالم الدملوجي وانور فتح الله. وقد انتقل معظمهم الى رحمة الله (ومنهم من ينتظر). وعلى الرغم من اني كنت الوحيد الذي لا ينتمي الى كلية الطب بينهم، فقد كنت اشعر، كما شعروا هم، انني جزء لا يتجزأ من تلك الشلة من الشبان المثقفين المتجانسين المرحيين الذين لم يواجهوا بعد هموم الحياة العملية. وكنا جميعا نهوى القراءة ونناقش في الادب والتصوير والموسيقى، وقلما كنا نتحدث في السياسة او نابه لها كما يفعل ابناء الجيل الحالي. وكانت لكل منا هوايته الخاصة يمارسها وينميها في اوقات فراغه. وقد انتمى معظمنا الى (معهد الفنون الجميلة) الذي افتتح حديثا وكانت الدراسة فيه مسائية، وكان فيصل مولعا بالموسيقى ويدرس العزف على الكمان، ونوري مصطفى بهجت بالرسم، وانا بالادب العربي، اما خالد فقد اظهر اهتماما وقابلية في الرسم منذ ذلك الوقت او قبله. ولعل اناملة الحساسة في التعامل مع ريشة الفنان كانت ستؤهله وتصبح اداته الطيعة في التعامل مع مبضع الجراح ي مستقبل حياته لتجعله في الطبقة الاولى من الجراحيين المعدودين في العراق.

وكانت ايام الدراسة العالية من امتع فترات حياتنا واحفلها بالذكريات اللطيفة التي طالما استعدناها كلما التقينا في السنوات التالية التي استمرت خلالها صلاتنا الاخوية وصداقتنا المتينة على الرغم من افتراقنا عن بعضنا واغترابنا عن الوطن فترات طويلة او قصيرة ولكنها لم توهن من صداقتنا المتينة.

ومن امتع ما كنا نستعيد ذكراه من ايام دراستنا العالية (ولا اقول الجامعية لان الجامعة لم يكن لها وجود في ذلك الوقت) هو اجتماعنا في دار احدنا ايام الخميس او الجمعة. والسفرات التي كانت تقوم بها شلتنا على الدراجات الهوائية او بالقطار الى ضواحي بغداد وبعض المدن القريبة منها مثل بعقوبة وسلمان باك (حيث يقوم طاق كسرى) والرستمية والجادرية وغيرها، وهي غير السفرات الفنية التي شارك فيها خالد بعد ذلك مع جماعة الرسامين ووصفها في غضون كتابه الشيق. وتبدو تلك السفرات الان من اجمل ايام العمر الخالية من الهموم. وكان خالد من الاعضاء الدائمين في تلك الشلة، وكان على الدوام مرحا، مبتسما للحياة، عميق الغور، محبا للنكتة الذكية، يضحك لها من اعماق قلبه. ولعله ورث روح الفكاهة وتذوقها من خاله المرحوم نوري ثابت صاحب جريدة (حبزبوز) الفكاهية المشهورة.

ومن اجمل ذكرياتنا من ايام الدراسة ايضا ومن اكثرها طرافة حادثة سرقة معطف خالد من مطعم كلية الطب، تلك الحادثة التي كنا نستعيد ذكراها كلما التقينا بعد ذلك.

كان خالد قد علق معطفه الجديد على شماعة في المطعم في احد ايام شتاء سنة 1943، ثم غادر المطعم في بعض شؤونه، فلما عاد لم يجد المعطف على الشماعة، فاخبر المسؤول عن المطعم بذلك. وكانت الملابس المستوردة الجيدة خلال سنوات الحرب العالمية الثانية نادرة وغالية الثمن، لصعوبة الاستيراد وقيوده في ظروف الحرب. فاسقط في يد المسؤول عن المطعم الذي شعر

بشيء من المسؤولية او الحرج، فاخبر الشرطة بسرقة معطف خالد.

ويبدو ان احد مراسلي الصحف كان يجول في بعض مراكز الشرطة للحصول على اخبار الجرائم والسرقات، فعلم بسرقة معطف خالد بين احداث ذلك اليوم. وهكذا صدرت احدى الصحف المحلية تحمل الخبر الاتي، او ما هو معناه:

"ابلغ مخفر شرطة العيواضية الطالب في كلية الطب خالد عبد العزيز القصاب ان معطفه سرق من مطعم الكلية.. والتحقيقات جارية..".

التحق خالد بعد اكماله دراسة الطب بدورة الضباط الاحتياط، ثم تطوع للخدمة مع الوفد الطبي لجمعية الهلال الاحمر العراقية في (اربد) و(نابلس) فلسطين عام 1948 خلال الحرب مع العصابات الصهيونية ونال (نوط الهلال الاحمر) لخدماته اثناء (معركة جنين) التي سجل فيها الجيش العراقي نصرا كبيرا بقيادة القائد الشجاع عمر علي.

وعند عودته من فلسطين عين جراحا في المستشفى الملكي في بغداد، ثم اوفد في بعثة علمية في بريطانيا للتخصص في الجراحة وكان من اوائل الاطباء العراقيين الذين حصلوا على شهادة عضوية كلية الجراحين الملكية.

في عام 1955 عين جراحا اخصائيا واستاذ مساعدا في قسم الجراحة بكلية الطب، فكان مدرسا مثاليا لطلابه ومرشدا ماهرا لمساعديه من الاطباء الناشئين.

ونال بعد ذلك مرتبة الاستاذية بعد نشره بحوثا اصلية في المجلات الطبية العالمية وانتخب رئيسا لقسم الجراحة في كلية الطب. ولما وقعت حادثة الاعتداء على عبد الكريم قاسم في تشرين الثاني (نوفمبر) 1959، وفي غمرة الهياج الذي ساد البلد كان خالد القصاب، لما يتمتع به من سمعة عالية كجراح ماهر، اول من خطر على بال المحيطين بعبد الكريم قاسم، فاستدعي لمعالجته على النحو الذي يصفه خالد في مذكراته.

تزوج خالد القصاب في سنة 1963 من الانسة (حنان) كريمة السيد عبد الجبار الراوي مدير الشرطة العام السابق، ورزق منها بابنه (وليد) وهو اليوم مهندس مدني ناجح، وبابنتين هما (زينة) و(رشا).

انصب اهتمام الدكتور خالد بعمله الجراحي على الامراض السرطانية وعلاجها جراحيا، واوقدته الدولة الى الولايات المتحدة الامريكية لغرض الاطلاع على آخر التطورات العلمية في مجال اختصاصه، كما حضر المؤتمرات الدولية في العراق وخارجه، وكان الرئيس المؤسس لـ (جمعية السرطان العراقية) في عام 1969.

وفي مجال التعليم الطبي اشترك خالد القصاب في وضع المناهج التفصيلية للجراحة، لطلاب الطب ودورات الدبلوم الاختصاصية. وعلى الرغم من انقطاعه عن التدريس بعد احالته على التقاعد عام 1979 فان علاقته في مجال الامراض السرطانية ووبائيتها بالعراق استمر من خلال (جمعية السرطان العراقية) ودعوته للمشاركة في فعاليات اللجان الوزارية.

ويروي خالد القصاب في مذكراته الشيقة ايضا سيرته الفنية وتطورها معرجا، حين تقتضي الضرورة، على عمله في مجال اختصاصه الطبي كما يتحدث عن زملائه في المجال الفني، وتطور الحركة الفنية في العراق، وعلاقته بابرز روادها وصداقته معهم، وذكرياته عنهم، مبديا اراءه الصريحة المعتدلة في اعمالهم وعلاقته بالفنانين جواد سليم وفائق حسن وزيد صالح وخالد الرحال وشاكر حسن وغيرهم، وكذلك ذكرياته عن (جمعية اصدقاء الفن) في بغداد، وعن (حركة الرواد) التي كان خالد من مؤسسيها ومن ابرز اعضائها. كما رسم بكلماته صورا حية لاصدقائه في الميدان الفني مع الاشارة احيانا، وبصورة عرضية، الى زملائه من الاطباء.

ومذكرات خالد القصاب بصورة عامة، عرض شيق ودقيق لتطور الحركة الفنية في العراق منذ الاربعينات، كتب بامانة وباسلوب مشوق.

وبعد ان تقاعد خالد عن العمل الرسمي بعد حياة حافلة وغنية في خدمة الانسانية، وعن التدريس في كلية الطب، حضر الى لندن حيث كنت اقيم، وهناك اصيب بعارض في القلب ادخل بسببه الى المستشفى، وكنت ازوره يوميا، وفي احد الايام ذهبت فلم اجده في غرفته، وقيل لي ان صحته قد تحسنت وانه غادر المستشفى في صباح ذلك اليوم. فسررت لشفائه طبعا، ولما كلمته بعد ذلك حيث كان يقيم قلت له انها المرة الوحيدة التي فرحت بها حين لا القاه، وكان خالد يحب النكتة ويطرب لها، وقد ضحك من اعماق قلبه لهذه الملاحظة.

وفي سفرة اخرى له الى لندن في سنة 1983، حضر خالد لزيارتي حاملا هدية ثمينة، وهي إحدى اعماله الفنية البديعة، وقد كتب على ظهرها العبارة الاتية التي اثبتها لا لأتباهى بها، بل تسجيلا لما كان بيننا من علاقة اخوية ومودة متقابلة، وهي:

الى صديقي "لنصف قرن" نجدة فتحي صفوة:

ثروة لجيله ولمن عاش معه.

خالد القصاب

.1983/12/13

×××

وقد استقر خالد القصاب في عمان بعد حياة حافلة في المجالين الفني والطبي، حيث واصل فيها انتاجه الفني بغزارة حتى اقعده المرض في ايلول (سبتمبر) 2003 وصادف ان زرت عمان في آب سنة 2001 وحرصت بطبيعة الحال على زيارته. وبعد عودتي الى لندن وصلتني منه رسالته التي اثبت نصها اعتزازا بها وتكريما لذكراه وتسجيلا لما كنا نرتبط به:

"عزيزي نجدة.. الصديق لثلاثة ارباع قرن: هذه سطور قصيرة ارسلها لك كما وعدتك لا تكفي للتعبير عن اشواقي المتعددة الجوانب او عن تعطشي لـ (كعدات" معك، لم تطفيء جذوتها زيارتك القصيرة جدا الى عمان. مرت الساعتان معك بسرعة كبيرة لم تترك لي مجالا للحديث عن الكثير مما رغبت بان اتحدث عنه. الهدف من هذه السطور محدود جدا، وهو

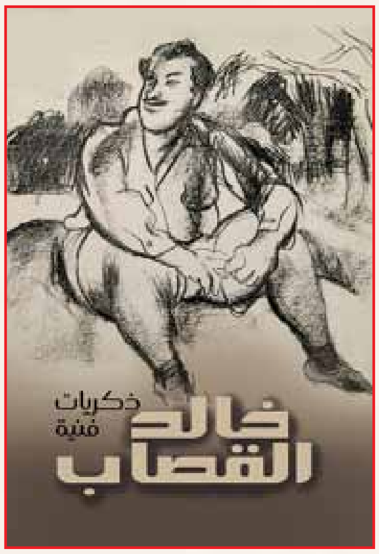

اطلاعك على صور لمجالس نيابية عراقية علك تساعدني في التعرف على من هم فيها.

ومن جملة ما خسرته اثناء زيارتك لعمان صورة معك بعدما توفرت لنا (الكاميرا) ولم تتوفر الاصابع التي تمسك الكاميرا لنا.

خالد القصاب

عمان في 31 آب 2001

×××

لا شك انه كان هنالك عدد من الاطباء الذين كانت لهم ميول فنية او سياسية، او هوايات واهتمامات صوفتهم عن مهنتهم الاصلية، وجعلت بعضهم يهجرونها، ومنهم السياسيون والشعراء (مثل ناجي الاصيل وعبد الله الدملوجي ومسامي شوكت في العراق، والشاعرين المصريين ابراهيم ناجي واحمد زكي ابو شادي- الذي هاجر الى الولايات المتحدة الامريكية، وكثيرين غيرهم). اما خالد القصاب فان هوايته في الرسم التي برز فيها، لم تصرفه قط عن التفوق والبروز في مهنته الاصلية جراحا اختصاصيا ناجحا، واستاذا قديرا للجراحة لم تنقطع علاقته بالطب، ولم ينقطع عن متابعة آخر التطورات العلمية والمكتشفات في مهنته، ونشر العديد من البحوث العلمية عن السرطان وغيره في دوريات طبية عالمية، وحصل على زمالة الجراحة في المعهد التذكاري (ميموريال) في نيويورك، وقضى ربع قرن او اكثر في التدريس في كلية الطب، وابدع في اختصاصه وباسلوب التدريس السريري، وكان رئيسا لقسم الجراحة في (مدينة الطب) ببغداد.

والى جانب كل ذلك شارك خالد القصاب في معارض فنية عديدة في العراق وخارجه، منها معرض جمعية الفنانين في (ولنت كريك) بكاليفورنيا، الذي شارك فيه 106 فنانا متخصصا بالالوان المائية، كما اقام معرضا شخصيا لرسومه المائية في المركز الثقافي في سان فرانسيسكو بالولايات المتحدة الامريكية، وحقق نجاحا كبيرا.

وهكذا فان انهماك خالد القصاب في المجالين الطبي والفني لم يكن احدهما على حساب الاخر، فقد كان مبرزا في كليهما، وستكون هذه المذكرات مرجعا مهما للاطلاع على مسيرة الحركة الفنية في العراق عبر مسيرة احد روادها، وعلى جهود شخصية عراقية لامعة جديرة بالتقدير والاحترام.

انني حين اكتب هذه السطور لتقديم مذكرات صديقي الراحل العزيز خالد، اشعر وكانني استعيد معه سنوات الرفقة والصداقة الطويلة التي سادتها المحبة، ولم تشبها شائبة قط، دون اية مصلحة مادية، او علاقة عمل ومنافسة، بل كانت نموذجا للصداقة الخالصة والاحترام المتبادل.

وفي الختام ارى من الواجب تسجيل شكري وتقديري للسيدة حنان، زوجة صديقي العزيز خالد القصاب لاهتمامها الكبير بنشر مذكرات زوجها الراحل الكريم، ومتابعتها تخليد لذكراه بوفاء جدير بالتقدير والاحترام، وعلى تفضلها بتكليفي كتابة مقدمة لها لما تعرفه من علاقتنا الاخوية الوثيقة. والطويلة الامد. وقد كنت سعيدا وفخورا بتلبية طلبها وكتابة هذه المقدمة المتواضعة عن مسيرة صداقتي الوثيقة مع خالد، وذكرياتي عنه، معتزا بذكراه العطرة، موجع القلب لفراقه.

وسيبقى خالد خالدا في ذاكرتنا وقلوبنا. وستبقى ذكراه عزيزة بين اصدقائه ومحبيه واسرته وكل من عرفه من قريب او بعيد، ومن انقذ حياته من مرضاه.

• مقدمة كتاب خالد القصاب/ ذكريات فنية

من زمن التوهج
"20عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"
العدد (5667) السنة الحادية والعشرون - الخميس (9) أيار 2024

فؤاد التكرلي يكتب عن الجوانب الفنية عند خالد القصّاب

هذا كتاب ثمين ونادر، من تلك الكتب التي لا تعثر عليها في المكتبات؛ ذلك أن خصوصية محتواه لا تسمح بأن يباع كما تباع بقية الكتب العادية.

لقد حصلت عليه بصدفة سعيدة؛ حين دعاني الصديق الأستاذ نجدت فتحي صفوة لزيارة رواق الأورفه لي في عمان لاحياء ذكرى الفنان الدكتور خالد القصاب و لمشاهدة بعض اللوحات الفنية و الاطلاع علي الكتاب الذي طبع تخليدا لهذا الفنان العراقي.

ذهبت و زوجتي في ذلك المساء المنعش من ايام الخريف العمانية الي الرواق الجميل.

اقتنينا بسرور كتاب د. القصاب اول دخولنا و حملناه معنا خلال تجوالنا للتمتع بالنظر الي اللوحات الرائعة التي مثلت جانبا مهما من جوانب التطور الفني للرسم العراقي. كان الأصدقاء في القاعة، بقلوبهم الحارة، يجعلون الصالة دافئة و مليئة بالحبور. أثناء تجوالنا في القاعة الفسيحة نتطلع الي اللوحات الفنية التي كانت تسجل تاريخ الفن التشكيلي العراقي منذ بدايته علي يد الفنان عبد القادر الرسام، لاحظنا جمعا من الزوار محتشدا حول عدد من خلصاء الفنان د. خالد، يتحدثون عنه كل من وجهة نظره الخاصة. قبل أن ننصرف قمنا بجولة أخري، شملت هذه المرة جانبا من الرواق كان مغلقا علينا بحشود الأصدقاء، و آنذاك بزغت أمام بصري لوحة للقصاب سماها حياة جامدة رسمها سنة 2004. ربطتني في الحال علاقة حميمة بتلك اللوحة؛ و كان بودي أن أقف أمامها ساعات وساعات. غير أني لم استطع التملي منها كما أحببت و دفعت بعيدا عنها رغما عني. الكتاب الذي يضم ذكريات فنية للدكتور خالد القصاب، جاء في مائتي صفحة من الورق الصقيل الأبيض، بطباعة أنيقة نفذت في دار الحكمة بلندن. لقد احتوي الكتاب علي ملحقين: الملحق الأول بعنوان حول النخل و السدر. رحلة الفن و العلم، و الملحق الثاني يحتوي علي العديد من الصور الفوتوغرافية للفنان و أصدقائه في بعض المناسبات الماضية. و الكتاب هو بمقدمة لصديق الفنان الأستاذ نجدت فتحي صفوة و تحرير الأستاذة مي مظفر.

في وسط الكتاب تتألق عشر صفحات بألوانها الجميلة التي يحتويها عالم الفرح. انها صور أمينة بألوانها الي حد معقول لعشرين لوحة من انتاج الفنان القصاب. و لكم ملأت قلبي غبطة لامحدودة و أنا أجد لوحتي المفضلة حياة جامدة 2004 في آخر صفحة من تلك الصفحات الاشراقية المذهلة. و قبل أن أبدأ بعرض موجز لما احتواه هذا الكتاب الأسر، أود أن أثبت هنا بأني أحد الذين عاشوا تلك المرحلة المزدهرة من تاريخ العراق الثقافي التي سعيت جهدي لابرازها للعيان علي حقيقتها، و أني من المتبقين القلائل الذين يشعرون بأن عليهم أن يرفعوا أذرعتهم عاليا مشيرين بفخر الي تلك الشمس التي غابت علي حين غرة. الكتابة، غالبا، نافذة يفتحها لنا الكاتب لنطل علي دواخله؛ قد نفاجأ مرة بظلمات دامسة تتراكم علي بعضها، وقد ندهش مرات أخري بالكون المضيء الذي ينكشف أمامنا. كتاب د. القصاب، و رغم اعترافه بأنه ليس كاتبا بل رساما، يغمرنا تلقائيا بروحه الصافية و بأفكاره الشفافة و بمحبة سرية تتجه من ذات الفنان الي كل من حوله من بشر و أماكن

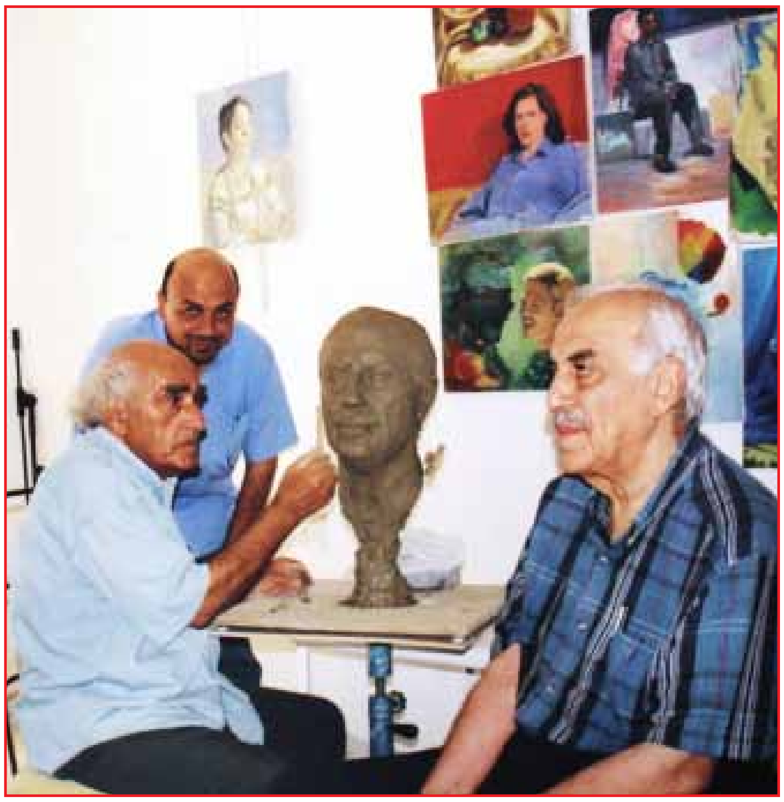

و طبيعة. كل هذا يجعل قراءة الذكريات الفنية، ليس متعة متواصلة فحسب، بل هي درس في التعامل مع العالم الخارجي و مع الأصدقاء ومع الفن و مكانته. أما بالنسبة الي، ككاتب عاش المرحلة بشكل آخر و وعي ملامح تلك النهضة العجيبة التي مرّ بها العراق أوائل العشرينات و حتي نهاية الخمسينات، فقد كان هذا الكتاب بلسما لجرح الفقدان الذي ينبض في أعماقي دائما. لقد انتهي كل شيء، الا أن من العدالة أن نقول و أن نصر علي القول بأن شمس الحضارة و النهضة العراقية الفذة ارتفعت في كبد سمائنا يوما ما. يبدأ د. خالد القصاب كتابه محاولا أن يرجع بذكرياته الي الطفولة، الا أنه عبر سريعا تلك الفترة. انه من عائلة كريمة معروفة في بغداد، تسنم أفرادها الكثير من المناصب العالية و المشرفة في الدولة و لعبوا أدوارا مهمة في تاريخ العراق السياسي.

وبالنسبة للفنان القصاب الذي تنثال ذكرياته بسهولة من مكان لآخر و من زمان لآخر، مهمة تقديمها كما يجب مهمة شاقة علي، وهي آخر الأمر، يجب أن تقرأ بنصها لاستكمال الفائدة و المتعة. ما سيطر عليّ حقيقة و ملك مشاعري هذه العلاقات الرفيعة المستوي المبنية علي التفاهم و الاحترام التي أقامها الفنان في بدايته الفنية.

د. القصاب بدا لي معجبا اعجابا ثابتا لم يتغير بكل من فائق حسن و جواد سليم. و لكم كان علي حق في ذلك. حديثه عن زياراته لبيت فائق حسن في العلوازية و اجتماعه بالأصدقاء هناك و رسمه لشخصيات العديد منهم، سحرتني كثيرا، وهي في الواقع وثائق من الصعب العثور علي مثيلاتها. ان الزيارات المتعددة التي قام بها الفنانون لاكتشاف معالم وطنهم و رسمها، من شمال العراق حتي جنوبه، مختارين ليس المناظر الساحرة التي كانت تلفت نظرهم فحسب، بل الشخصيات المحلية ذات السمات المميزة؛ انما هي أساس كل نهضة فنية شمولية و أصيلة و صادقة. لقد انتمي الي هذا الحشد من الفنانين التشكيليين، أصدقاؤهم من محبي الموسيقي الكلاسيكية ومن المهندسين المعماريين ذوي النزوع الفني، فمنحوا الحشد بعدا آخر أكثر سعة و تطلعا الي الحضارة الحديثة. و كان طبيعيا أن تتكون الجماعات الفنية و أن تلتمّ علي بعضها لتقوي علي مواجهة المستقبل؛ فتشكلت جماعة الرواد و جماعة بغداد للفن الحديث و جمعية الفنانين التشكيليين و جماعة الأنطباعيين و جمعية أصدقاء الفن و غيرها. ان هذا الجمع من الفنانين الذين ظهروا في بداية تأسيس الدولة العراقية الفتية، لم تسندهم قبل ذلك عناصر ثقافية أو ماض حضاري متصل أو تراث فني غني؛ بل هم ظهروا و مارسوا نشاطهم علي حين غرة، بعد سبات طويل دام مئات السنين، ككل بظله الأسود الثقيل علي تلك الأرض الطيبة.. أرض الرافدين. تلك نهضة تشبه أعاجيب الطبيعة و لا سبب ظاهريا أو منطقيا يمكن أن يفسرها.

و لم يتوقف ذلك الطابور الغريب من الفنانين: بدءا بعبد القدر الرسام و فائق حسن و جواد سليم و أكرم شكري و عطا صبري و محمد غني حكمت و اسماعيل الشيخلي و شاكر حسن آل سعيد و خالد الجادر و خالد القصاب و حافظ الدروبي و رشاد حاتم و خالد الرحال و استمرارا بنزار سليم و نزيهة سليم و عيسي حنا و محمود صبري و محمد زكي صالح و زيد صالح و آخرين و آخرين ما زالوا، لحسن الحظ، في قمة انتاجهم الفني أمثال ضياء العزاوي و محمد مهر الدين ورافع الناصري و راكان دبدوب، و لن أنسي المرحوم كاظم حيدر. هذا الجمع المتألق كان مسنودا في مسعاه الفني من قبل معماريين متميزين من أمثال محمد مكية و جعفر علاوي و رفعة الجادرجي و سعيد علي مظلوم ومدحت علي مظلوم و قحطان المدفعي. هذه الظاهرة الحضارية تقلب، في نظري، موازين علم الأجتماع و تضع طاقة الانسان الذاتية في المقدمة و قبل كل شيء؛ وهي نهضة سبق لها أن قامت في فلورنسا بايطاليا القرنين الثني عشر و الثالث عشر. ان أهمية كتاب د. خالد القصاب تكمن في أنه شهادة عالية الدقة و موثقة بالأسماء و التواريخ و الأماكن تثبّت حقيقة هذه الأعجوبة العراقية الفنية. لقد رصد المؤلف.هذا الفنان الحساس.معالم في الحياة العراقية ذات دلالة كبيرة. أول تلك المعالم ذلك النص الذي ألقاه جواد سليم ذات مساء من أوائل 1951عام باعتباره كلمة افتتاح للمعرض الأول لجماعة بغداد للفن الحديث. لقد أورد النص بكامله، مسجلا بذلك أهميته القصوي لتلك المرحلة الخصبة. ثاني تلك المعالم ما كتبه خالد القصاب.هذا الانسان المتألم و الحزين و المرتبك.في حزيران 2003، تعليقا علي الاجتياح الأمريكي للعراق: (في الوقت الذي أكتب فيه هذه المذكرات، تزول عن بغداد هذه المعالم الجميلة ضحية القنابل الذكية و الغبية، وتشتعل فيها النيران. فوزارة التخطيط تصاب بالصواريخ وتحرق، و كذلك بناية وزارة الخارجية التي صممها المعماري سعيد مظلوم علي شكل زقورة. ثم بناية مركز الاتصالات في السنك و بناية المجلس الوطني و كلاهما من تصميم رفعة الجادرجي. ووزارة المالية علي طريق محمد القاسم السريع و التي صممها المعماري قحطان المدفعي، و كذلك بيت والدي الذي صممه المعماري الحلبي بدري قدح في أواسط الثلاثينيات من القرن العشرين. و قصف أيضا البيت الأبيض المجاور له وهو من تصميم جعفر علاوي و فيه أقمنا معرضنا الأول معرض الرواد عام 1950. احترقت بغداد و أبنيتها، كما نهبت متاحفها و كنوزها الأثرية و تحول الكثير من تراثها الي فحم و دخان أسود يغطي سماءها الصافية.) و في الملمح الثالث اذ يقلب المؤلف صفحة الفن ليعطي رأيه في رجل قلب مستقبل العراق يقول عن عبد الكريم قاسم: (وجدته بغداديا في صفاته، متواضعا، حاد الذكاء، غير طامع بغني و محبا للنكتة؛ وهو لا يتقن اللغة السياسية و لا يدرك خفاياها. لم يتمكن من خلق قاعدة حزبية قوية له تمكنه من الوقوف أمام التيار اليساري أو اليميني، و اعتمد بصورة رئيسية علي ضرب فئة ضد أخري، فانجرف في متاهات أدت الي انهيار حكمه). و هكذا وقبل أن أجد نفسي مقسرا علي انهاء حديثي عن ذكريات الفنان خالد القصاب المتعة و الموجعة، لا بد لي أن أريح مشاعري و أنسي بأن كل شيء قد اندثر، في تأملات شخصية بحتة عن تلك اللوحة المتفوقة حياة جامدة 2004. انها قبل كل شيء، عمل فني خارج من أتليه ماتيس؛ فهذا الانسجام اللوني المعقد فيها، لا يقدر عليه الا من كان يملك مقدرة ذلك الفنان الفرنسي العظيم. ان الخلفية التي تحتضن القوارير المشبعة بألوان تتبادل الهارموني فيما بينها، تمنح اللوحة اشعاعا غريبا يجعلها تبدو كأنها نافذة علي الفردوس. ماذا رأي الفنان بروحه وهو ينجز تلك اللوحة الأعجوبة؟ لقد كان يتطلع الي جنته الشخصية المتسمة بالانسجام اللوني و بالاستقرار و الثبات و بالحقيقة.

*سبق لهذا المقال ان نشر في المدى

عراقيون
من زمن التوهج
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
المدى
للإعلام والثقافة والفنون
فخري كريم
رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين
سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق
يمكنكم متابعة الموقع الالكتروني من خلال قراءة QR Code:
www.almadasupplements.com
Email: info@almadapaper.net
طبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

خالد القصّاب وشعرية اللوحة الفنية

د. عامر هشام الصفّار

عرفت الدكتور الجرّاح خالد القصّاب عام 1978 -1979- أستاذ جراحة فاضل له مكانته في الهيئة التدريسية لكلية الطب بجامعة بغداد. يدخل الأستاذ قاعة المحاضرات فيفرض هيبته علما وشخصية على طلبته الذين أحبوه وعرفوه طبيبا جرّاحا ولم يعرفوه فنانا، فهم طلبة طب على أي حال.

والحق أقول أنه كان يدرّسني عن السرطان ودور الجرّاح في العلاج ولم يشر الى فنه مرة واحدة فهذا مما لا أذكره.

وعودة الى سنواته الفنية فأني لواجده من المبدعين الذين ربطوا بين المبضع الجراحي وفرشاة الفنان وأوراقه وألوانه وحبه للناس والطبيعة ونزوع نفسه للأبداع والجمال.

وهو هذا النَفَس الأول في الطفولة وحبه للفن، وقرب روحه من جمال الطبيعة، وتوقه وأشتياقه الى التعبير عن كل ذلك رسما وفنا..حيث قرّبته صداقته مع فناني العراق من تحقيق هدفه، وقرّبته ثقافته، وقرّبه علمه. ومن المعروف تاريخا أن خالد القصّاب كان أحد المؤسسين لجماعة الرواد الفنية العراقية حيث نظّم في بيته في كرادة مريم بغداد أول معرض فني للجماعة وذلك عام 1950. وعن جماعة الرواد يقول أحد فنانيها المتميزين الدكتور نوري مصطفى بهجت أن هذا التجّمع كان أول تجمع للفن التشكيلي الذي بدأ بالظهور منذ عام 1940 وأستمر بنشاطه لمدة 62 عاما حتى عام 2002. ثم أن القصاب قد شارك في تأسيس أول جمعية عراقية للفنانين التشكيليين عام 1956 حيث كان أول سكرتير لها.

وأنتَ ترى لوحاته وتشاهد وتنفعل وتدهش فتقترب أكثر للتمتع بألوان اللوحة وتشكيلاتها ومعانيها وبساطتها، فأني لواجد القصاب خالدا وقد أرتاح وأنتعش وهو يمارس الرسم أبداعا فنيا بعد يوم متعب في صالة العمليات. وهكذا فهو يعالج روحه بعد أن يعالج مريضه..فالفن عنده ليس للمال وليس لأشياء الحياة المادية، بل هو متعته النفسية وراحة باله وتوقه للمشاركة الأنسانية عبر لوحاته ورسومه وما تبدعه فرشاته.

وقد تقرأ مسار خالد القصاب الشخصي من خلال لوحاته، وقد تقرأ فلسفته في الحياة، وقد تقرأ أفكاره الأنسانية..وقد تقرأ منهجه الحياتي من خلال فرشاته، فهو الواضح الصريح المحّب والمغرم بطبيعة ساحرة. أو هي عنده تظل وما تزال تأخذ باللب وأي مأخذ. فيا ترى كيف له أن يرسم العراق وبلدات العراق وبساتين العراق على غير ما رسم؟!.. أنه الكون العراقي الجميل عنده.spring in jaderia

وهي هذه الرؤية الفنية الكبيرة المتميزة التي عبّرت عنها لوحاته أحسن تعبير. وعليه فلا غرابة في تشبيه النقّاد لأسلوب القصاب في الرسم بما كان عليه الفرنسي الفنان بول سيزان الأنطباعي المعروف والذي أنتج وأبدع عالميا. ولابد لي من أن أستشهد بما كتبه د. خالد السلطاني من أن أسلوب القصاب العراقي أنما يضيف ضوء شمس بغدادية على اللوحة، وهي الشمس المتوهجة الحارة حيث تتشكل اللوحة عند الفنان القصاب من اللون الوحشي أذا جاز التعبير وكما يذكر السلطاني، أضافة الى التنبّه لضوء منبعث عن نور الشمس مما يغمر اللوحة من كل جوانبها.

ولعلي أستعير من نقاد الفن تعابيرهم ومصطلحاتهم فأقول أن لخالد القصاب ولوحاته فعلا لونيا مميزا.. له طابعه الخاص.

وهو كما أراه يكاد يلتقي مع "بغداديات" الفنان العراقي ستار لقمان الذي هو أمتداد للمدرسة البغدادية في الفن العراقي الحديث، حيث أن الأثنين وجدا في جواد سليم المعلم الأول وهو الذي أسسّ المدرسة البغدادية في الفن الحديث.

ولعل التشكّل الجمالي للوحة عند القصّاب لن يتحقق في كليته بمعزل عن التخيّل الفني لحالة الطبيعة وروعتها في لحظة الزمن الحاضرة، والتي لا يفتأ الفنان الاّ أن يسجّلها بفرشاة التأمل والتفاؤل. ثم أن وظيفة اللوحة عند الفنان لن تكون بسيطة ذلك أنه يسعى لأن يملأ المساحة لونا وشكلا يستطيع الصمود أمام التغير والتحوّل بغية الخلود. وعلى ذلك عندما تأثرت أحاسيس الفنان القصّاب برؤية نهر دجلة من خلل شرفات غرفة الجلوس في بيت زميله الطبيب الكائن قبالة النهر، راح يرسم لوحته للتو سائلا لأن يهدي اللوحة لأبنة صاحب البيت وهي تعيش في غربتها في لندن، حيث أن الزميل نفسه بطبيعة الحال يرى المنظر أمامه يوميا!.

وأجد هنا أن أستشهد بما كتبه ماجد السامرائي حول لوحات الفنان ستار لقمان في عدد مجلة العربي الصادر في آب 2014 حيث يصّح فيه الأستنتاج على أبداعات فناننا القصّاب "ولعل أكثر أهمية في هذا التكوين هو الأنتقال الذي يعتمده من (المرئي) عينا وبرؤية العين الى الأحساس بهذا المرئي.، مما يجعله يوزع رؤيته الفنية في غير أتجاه، شاحنا ذاته بما يستعين به ويعينه في عمله هذا: الرؤية التخييلية واللون المتواشج مع عوالمها الزمانية والمكانية جاعلا منها منطلقه في تكوين لوحته"silent life.

وهنا أذكر ما قاله جواد سليم يوما من أن "الفنان الحق يجب أن يعرف ماذا يرسم ولماذا يرسم". وحول جماعة بغداد للفن الحديث عام 1951 يقول جواد" ما يثيرهم كفنانين هو ما في طبيعتنا ومحيطنا المحض. وأنهم جماعة أنما يهيئون الأسس للأجيال الشابة القادمة".

أن خالد القصاب صيّاد ماهر للحظات الطبيعة الجميلة الموحية، المثيرة، المدهشة. أما موضوعات خالد القصاب فهي قريبة الى كل الناس: هي الحقل والبستان والهور والغابة والأشجار ودجلة الخالد.. هي قصائد تلملمها فرشاته لتشير الى نبض القلب / العراق.

وعليه فلوحاته لا يمكن أن تملّها العين. بل يراها المشاهد المتابع متجددة في المعنى. أما حرارة فرشاته والألوان، فهي الجمالية الممتعة بعينها مما تجعله عندي فنان الطبيعة والبيئة العراقية بأمتياز.

ولعلي أقول مع السامرائي ماجد مرة أخرى "أننا هنا نجد الموضوع بما له من بُعد تشكيلي يتقدم فيكتسب بُعدَ حضور الذات من خلال علاقة هذه الذات بالمكان في ما لها من زمانية العلاقة به التي هي علاقة الرائي بالمرئي، كون هذا المرئي موضوعا محقّقا ضربا من حركية التراسل بين المستوى الرؤيوي/التخييلي والمستوى التعبيري عند الفنان".

أن كل ذلك هو ما أصطلح عليه بشعرية العمل الفني عند الأستاذ خالد القصاب.

ولن ينس قاريء كتاب الراحل الطبيب الفنان خالد القصّاب المعنون ب "ذكريات فنية" سرده التاريخي السلس لمسيرة الفن التشكيلي في العراق، أضافة الى تفاصيل العمل للفنان العراقي والأسلوب والتشكيل اللوني المتّبع عند كل واحد من الفنانين الذين عرفهم عن قرب، جعله يمتّع القاريء بقصص لم تكن معروفة عن حياة الفنانين الأصدقاء الخاصة. ولابد لي هنا من التذكير بأسلوب الفنان القصّاب الخاص في الكتابة التقريرية، فها هو يسطّر مشاعره بعد أن رأى وسمع عن أخبار الوطن وأحتلال بغداد في نيسان 2003 ليكتب في حزيران ذاك العام قائلا: "في الوقت الذي أكتب فيه هذه المذكرات، تزول عن بغداد هذه المعالم الجميلة ضحية القنابل الذكية والغبية، وتشتعل فيها النيران. فوزارة التخطيط تصاب بالصواريخ وتحرق، وكذلك بناية وزارة الخارجية التي صممّها المعماري سعيد مظلوم على شكل زقورة، ثم بناية مركز الأتصالات في السنك وبناية المجلس الوطني وكلاهما من تصميم رفعة الجادرجي، ووزارة المالية على طريق محمد القاسم السريع والتي صممّها المعماري قحطان المدفعي، وكذلك بيت والدي الذي صممّه المعماري الحلبي بدري قدح في أواسط الثلاثينيات من القرن العشرين. وقصف أيضا البيت الأبيض المجاور له وهو من تصميم جعفر علاوي وفيه أقمنا معرضنا الأول، معرض الرواد عام 1950. أحترقت بغداد وأبنيتها، كما نهبت متاحفها وكنوزها الأثرية وتحّول الكثير من تراثها الى فحم ودخان أسود يغطي سماءها الصافية.

أن مرور الذكرى العاشرة لوفاة الفنان الطبيب خالد القصّاب أنما تعتبر بحد ذاتها مناسبة للتذكير بأهمية المنجز الفني والعلمي له، أضافة الى أهمية الأنتباه لضرورة تدريس الفن والأدب في كلياتنا الطبية ولو لساعات قليلة، فذلك لعمري يجلي الروح ويعطي للمهارة العلمية رونقها وسحرها وأخلاقياتها الخاصة. ومثل هذه الدعوة هي اليوم موجودة بشكل واضح في المدارس الطبية الأجنبية وخاصة منها البريطانية. وقد يفيد التذكير هنا بأن المجلة الطبية الأميركية المعروفة ب "جاما" أنما تنشر عددا من لوحات الفن التشكيلي في كل عدد أسبوعي من أعدادها وبعد المقالة الطبية مباشرة.

خالد القصاب.. إقتناص لحظات الطبيعة

جمال العتابي

> إذا كان لنا أن نتناول بمثل هذه اللمسات النقدية تجربة الفنان خالد القصاب، فذلك يعني بأننا إنما نجري في تيار الزمن من مبتدئ حركة التشكيل في العراق ونعود إليه في استذكارات عذبة من تاريخ الرسم الخمسيني لـ "جماعة الرواد".

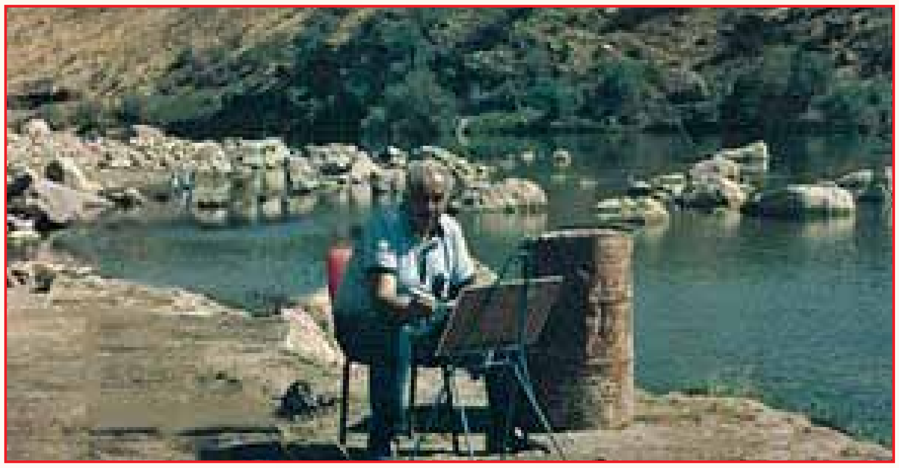

ما الذي يعنينا هذا التاريخ الذي قرأنا عنه بما يكفي من إشارات، أو ربما البعض القليل من عايشه؟ نقصد بذلك أن تجربة الفنان القصاب ارتبطت بالمراحل التأسيسية للفن المعاصر في العراق، وكانت له منذ البدء علاقات واسعة مع أقطاب الفن الرواد وفي مقدمتهم جواد سليم وفائق حسن واسماعيل الشيخلي وعيسى حنا وحافظ الدروبي وغيرهم.

هو ذا عبير الماضي إذاً الذي يذكرنا بالزمن الذي تشكلت فيه أول المحاولات والمشاريع الفنية الصغيرة في حقل التشكيل العراقي، وسرعان ما يكتشف الفن طرائقه الخاصة للتوازن مع نقلات العصر وتحولاته، وهو ما حصل في عام 1950 حين ساد الاعتقاد بين عدد من الفنانين الشباب بأن تكوين "جماعة" يعني إيجاد حلقة وصل تربط الفن بالمعرفة، كما تخرج في الوقت نفسه بصيغة جديدة تلتمس فيها قوة الفعل الجماعي المشيد على قاعدة العمل المشترك والمستجيب لنقد الذات، وهذا ما جرت عليه (جماعة الرواد) وما أخذت به على نفسها طيلة وجودها بفعالية داخل المشهد.

إن ظهور هذه الجماعة كمجموعة فنية تتجاوز مرحلتها الطفولية الأولى في الأربعينيات إلى مرحلة شبابها جاء معبراً عن موقف جديد اقترن بالدعوة إلى الرسم بأساليب مطلع القرن العشرين ومنتصفه في أوربا، كما يذكر ذلك شاكر حسن آل سعيد في كتابه (فصول من تاريخ الحركة التشكيلية في العراق ج1).

لقد عثرت هذه الجماعة على منظورها الخاص، ليس من خلال الفلسفة، بل من خلال المحاولات التشكيلية المتّسمة بطابع "التجريب" وهكذا فقد ارتمت منذ البداية في أحضان الطبيعة، ومارست الجماعة فعلاً ارتيادها بساتين "الجادرية" استغراقاً وتماهياً مع المشهد الطبيعي.

كان القصاب يحلم أن يكون رساما، أو مهندساً معمارياً، ولعدم وجود هذا الاختصاص في جامعة بغداد، مطلع اربعينيات القرن الماضي، اضطر للتقديم إلى كلية الطب، فتخرج طبيباً رغماً عنه، إلا أن سنوات الدراسة الأولى كشفت عن قدراته في الرسم، وتعلقه فيه، وتعرّف حينذاك على الفنان فائق حسن الذي أحسن توجيهه ورعايته، ومن خلاله تعمقت علاقته بالفنانين الرواد، وشارك في معارضهم، وكان منزله قد استقبل أول معرض للرواد شارك فيه بعدد من الأعمال.

بعد هذه الانعطافة التاريخية، اكتسبت أعمال القصاب شيئاً من خصوصية الارتباط الفني بتاريخ تلك الجماعة، وما نجد في أعماله من ملامح ذات جذور مدرسية – انطباعية، لا يبعده كثيراً من احتفاليات الجماعة أيام كانت البساتين وحقول ضواحي بغداد مسرحاً لنشاطاتها الدائبة، لذا استمر خالد في العمل من دون رفض للاقتناع بذلك القانون الذي يعتبر الطبيعة هي هبة الله للفنان.

وهو يعلم بما يملكه من ثقافة فنية عالية، ان ما يفعله الآخرون حينما بدأوا بتحطيم الأشكال والبحث عن أبعاد جديدة من خلال تركيبات واستبطانات مبتدعة، إنما يحمل في طياته مخاطر واحتمالات لا يجد أنه مدعو للخوض فيها، ما دامت الحركة تأتي ذاتها يومياً بالجديد المضاف إلى القديم أو الابداعي الذي يقصي مألوفاً في الساحة الفنية.

إن أمانة التقييم التاريخي تقتضي أن نضع الاشارات الدّالة بموضوعية لتجربة القصاب التي تميزت باقتناص اللحظات الجميلة في الطبيعة والمحيط والحياة بكل معناها، فهو لا يرسم من أجل قتل الوقت أو للهواية فحسب، بل يرسم للتعبير عن رؤيته في معنى الحياة -أعني به- التعبير الأمثل عن مسراته الداخلية وسعادته الدائمة، بملوناته التي تنقلنا بالإيماء أو الإشارة الخفية إلى المعنى المطلق لهذه الطبيعة.

نقول استطاع الفنان خالد القصاب أن يذكر لنا ببساطة أن عالمه الأثير ما هو إلا جنة سحرية هيأت للمشاهدة الشعرية، لذا فقد حمّل ريشته أكبر قدر من طاقة اللون، وأكد على النور الوهاج في حال، والظل البنفسجي العميق في حال أخرى، ناثراً ما بين الألوان: نقاط الفضة الخالصة، ولمعان الصدف المشع، وقطرات الذهب المشع، غير ناس ما يحمله الطين العراقي من لون ترفعه إلى قمة الرؤيةٍ يقظة الخضرة الماثلة، وتطامن البيوت وهيبة الجبال والوديان والنخيل والأنهار، حتى لكأنها تستعيد في أذهاننا ما بين قوانين الطبيعة الصورية، وبين التنوع اللامحدود للظواهر من علاقات.

إن ما تحقق خلال تجربته الفنية تضع الفنان القصاب إلى جانب أبرز الفنانين العراقيين المهتمين في رسم الطبيعة وبلورة واقعية تفصح عن أعماق رسامها، أي عن رؤيته وتكوينه النفسي وبالتالي عن أسلوبه المميز في توزيع اللون والكتل ورسم الخطوط والحركة.

وفي ضوء آراء النقاد يحيل البعض منهم أسلوبه إلى اسلوب الرسام الانطباعي الفرنسي "بول سيزان" ويؤكد الناقد والروائي جبرا إبراهيم جبرا هذه الحقيقة في اشارته إلى استرسال القصاب في استقصاءاته للطبيعة، ليضيف كل مرة عمقاً جديداً إلى رؤيته.

لم تقتصر حياة خالد القصاب (1924–2004)على الرسم فقط، فهو إلى جانب كونه طبيباً جراحاً ماهراً، واستاذاً للجراحة في كلية الطب، كان القصاب عنصراً فعالاً ونشيطاً في المشهدين الفني والاجتماعي، وله اسهاماته المتعددة والمتميزة في الحراك التشكيلي والمشاركة المعارض، وتأسيس الجماعات الفنية، فكان أول سكرتير لجمعية(الفنانين) التشكيليين العراقيين فيما بعد، إثر أول مؤتمر تأسيسي لها عقد في النادي الرياضي الملكي في الاعظمية، أواخر عام 1955، وانتخب المعماري محمد مكية رئيسا للجمعية، وأكرم شكري نائباً له، والأعضاء كل من: اسماعيل الشيخلي، جواد سليم، فائق حسن، قحطان المدفعي.

صدر للفنان القصاب في عمّان كتابه "ذكريات فنية" عام2007 الذي تصدرته مقدمة الكاتبة والناقدة مي مظفر التي جاء فيها:

"يغوص القصاب في كتابه إلى أعماق ذاكرته ويمسك بخيوطها فيستعيد ملامح أحداث عايشها بملامسة ساخنة.

إنه لا يذكر ذاته إلا من خلال الآخرين، فالجماعة، كل فرد فيها، هم أبطال هذه المذكرات، والوطن الذات الطاغية.

تتناول المذكرات نشأة فنون الرسم والنحت والخزف، كما تتحدث عن العمارة، وبذلك يضعنا أمام صورة متكاملة لحقب من تاريخ العراق الحضاري.

يلون القصاب بذاكرته هارباً من سواد اللحظة، محاولاً استرجاع جانب من وقائع تؤول للمحو، فأعطانا درساً بالتوثيق والروح الإنسانية المتسامحة لزمن لن يعود.

كانت بينه وبين الفنان الراحل ناظم رمزي مراسلات، مكتوبة بعاطفة حميمة تذهب إلى الخصوصيات والمزاح، واللمحات الطريفة نشرت في كتاب رمزي "من الذاكرة"، تلك الرسائل بينهما، سردية تكشف عن ذاتين انتهيتا إلى نفس المصير.. الموت بعيداً عن الوطن.

"20عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"
عراقيون من زمن التوهج
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون